(١)

نحو ثورة ثقافية شاملة

يحلم المصريون هذه الأيام بنهضة شاملة تطال كل شيء، والطريف أن أحدا لايعى أن هذه النهضة المنشودة لايمكن أن تبدأ إلا من خلال ثورة ثقافية شاملة تغير من نظرتنا إلى الحياة وتحولنا حقيقة من ثقافة التخلف والجمود التى نعيشها إلى حالة من النشاط والحيوية والعمل الدءوب والمتقن كل فى مجاله. وهذه الحالة من الحيوية والنشاط المبدع الخلاق لايمكن أن نتحول إليها إلا بإصلاح ثقافى شامل تقوم عليه وتتضافر على تحقيقه كل مؤسسات الدولة المعنية وكل مؤسسات المجتمع المدنى وقبلهم ومعهم كل أجهزة الاعلام والثقافة حكومية كانت أو خاصة.

إننا كأفراد وكمجتمع ندرك أبعاد وصور ثقافة التخلف التى عششت فى أدمغتنا وتبدو دائما فى سلوكياتنا؛ فنحن ندرك مثلا أن مجتمعنا يعانى من الشللية والوساطة والمحسوبية والأنانالية، كما يعانى من النمطية واللامبالاة بالآخر وبحقوقه (وانت مالك خليك فى حالك!!)، إننا ندرك أن كلا منا لم يعد يعنيه إلا مصلحته الخاصة وبالكاد مصلحة أفراد أسرته الصغيرة وربما أيضا أسرته الكبيرة على الأكثر، وأننا لم نعد نهتم

بما سيحدث فى المستقبل، مكتفين بالكاد بما يحدث فى اللحظة الحاضرة (ياعم عايشنى النهاردة وموتنى بكره!!) ومنشغلين فقط بما يجرى فى بلدنا من أحداث دون أدنى اهتمام بما يحدث حولنا. لقد أدمنا ثقافة التواكل (خليها على الله ـ يابن أدم اجرى جرى الوحوش غير رزقك لن تحوش!!)، كما ارتضينا أن يشغل كل المواقع القيادية فى بلدناأهل الثقة وليس أهل الكفاءة، كما قللنا من قيمة العلم واتقان العمل فى الوصول إلى الأهداف المرجوة فى الحياة معتمدين على ضربة حظ تأتينا من هنا أو هناك (قيراط حظ ولا فدان شطارة). إننا لم نعد نندهش لأى من الظواهر السلبية التى تغلف حياتنا وبدلا من أن نثور عليها مطالبين أنفسنا قبل غيرنا بتغييرها، تكيفنا معها وأصبحت من معالم الحياة التى ارتكنا عليها؛ فلقد تعودنا على سماع كل الألفاظ الخارجة فى مسلسلاتنا وبرامجنا فى أجهزة الإعلام كما فى الشوارع والحارات، تعودنا على أكوام الزبالة تغطى شوارعنا وأمام بيوتنا، ولم نعد نخجل من أن نقذف بها خارج بيوتنا وسياراتنا وكأنها بذلك أصبحت بعيدة عن التأثير على صحتنا وصحة أولادنا، تعودنا على المدارس وقد خلت من الطلاب والمدرسين مفضلين استقبالهم فى البيوت ومراكز الدروس الخصوصية، لم تعد الدروس الخصوصية عيبا ولا علامة على تقصير من المرسة والمدرس والطالب، وبدلا من أن نتجه إلى اصلاح مدارسنا وجامعاتنا ولو ببعض الزيادة فى المصروفات أصبحت المدارس والجامعات الخاصة هى النموذج الذى ينبغى أن نسعى اليه ونعلم أولادنا فيه!! تعودنا على منظر المكاتب الخاوية فى المصالح الحكومية أحيانا وعلى منظر موظفيها وهم منشغلون بالرغى أو بقضاء بعض مصالحهم الشخصية وهم يحتجون علينا وعلى الحكومة قائلين: (على قد فلوسهم!!)، تعودنا على كل مظاهر الفوضى

فى شوارعنا؛ من التفنن فى الخروج على القانون إلى كسر اشارات المرور ومنهما إلى تحويل الشوارع والأرصفة إلى محلات تجارية وكأننا نتبارى فى تشويه بلدنا وانعكس كل ذلك القبح على أخلاقياتنا؛ فانتشرت ظواهر التحرش بالنساء وخطف الأطفال وبيع الأعضاء وغابت أخلاق الشهامة والإيثار وحب المساعدة والتعاون فى السراء والضراء التى كنا كمصريين مشهورين بها بين الأمم!!، تركنا البحث الجاد عن العمل (أى عمل) وفضلنا وفضل شبابنا التسكع فى الطرقات والجلوس على المقاهى والتبلد أمام الشاشات سواء التليفزيونية أو شاشات الموبيلات واللابات (الحاسبات الآلية أو الكومبيوترات). وانتقلت العدوى من رجل الشارع إلى مثقفينا الأفاضل ومقدمى برامج التوك شو فأصبحوا مدمنين للشللية وشغل الشاشات وملء الوقت بكل ماهو فارغ من القضايا التافهة والرغى فى مسائل وقضايا قد لايعرفون عنها إلا أسمائها، وإلا فليقل هؤلاء وأولئك ما علاقة من يسمون أنفسهم بالناشطين السياسين بعلم وفلسفة السياسة وماذا يعرفون فيهما حتى يمكنهم تقديم الفتاوى والرؤى التحليلية السياسية لكل ما يحدث فى بلدنا والعالم؟! وكيف وبأى معايير يطلقون على هذا أو ذاك الخبير الاستراتيجى وهو لا يعلم ماذا تعنى الكلمتين السابقتين على اسمه!!. لقد أصبحت القدوة فى مجتمعنا هى شجيع السينما ولاعبى الكرة فهم نجوم الشاشات وأصحاب الأجور الفلكية (اللهم لا حسد)، وبالطبع فنحن لا نلومهم، فكل يحصل على ما يستحق حسب قانون العرض والطلب المعمول به فى كل الدنيا، لكننا نلوم ونثور على ما dقدمونه لنا من نتائج متدنية فى عالم الرياضة، وأعمال فنية هابطة فى عالم الفن ليس فيها من قيم الجمال شيئا بل يغلب عليها القبح والجهالة وكل ذلك بحجة (الجمهور عايز

كده!!) والسؤال لهؤلاء وأولئك هل غاب فعلا زمن الفن الجميل الذى يرتقى بالذوق العام ويرهف معه الاحساس ويتحسن السلوك؟! وهل غابت عن ملاعبنا روح الانتصارات والمنافسة الشريفة وغلبت عليها روح اللاعب والرياضى تاجر الشنطة الذى لا يعنيه سوى الحصول على مقدم العقد ومرتبه دون أن يمتعنا بمهاراته ويفرحنا بانتصاراته وخاصة فى المحافل الدولية؟!

إن كل هذه وتلك تمثل بعض مظاهر ثقافة التخلف التى لم نعد نخجل منها فى الوقت الذى ينبغى أن نحاربها حربا شعواء لنتخلص منها ومن عوارضها وتفريعاتها التى ملأت حياتنا وأعاقت نهضتنا وأوقفت تقدمنا وجعلتنا نعيش حالة الاستسلام والجمود والتبعية بدلا من أن نواصل ماكنا قد بدأناه من نهضة فى الستينيات من القرن الماضى، فهل من سبيل إلى مواجهة كل هذه الصور السلبية التى نعانى منها فى حياتنا؟!

الحقيقة أننا مجتمع يؤمن بالقدوة ويتفاعل مع قياداته إذا أحس فقط بأنها قيادات مخلصة تعمل بجد واخلاص لصالح أمتها وشعبها، وعلى ذلك أرى أننا فى مرحلة حاسمة من مراحل تاريخنا القومى، قيض الله لنا فيها قيادة واعية ومخلصة، قادرة على اتخاذ القرارات المناسبة التى من شأنها إصلاح الأحوال وتحديث المجتمع فى كل الاتجاهات وعلى كل المحاور، وهذا يعنى أن لدينا القيادة الواعية والقادرة وما علينا إلا أن نرسم معها الطريق ونسهر بعد ذلك على التنفيذ بالجدية والتجرد الواجبين فى كل قطاعات الدولة.

وفى اعتقادى أن طريق الحداثة والتحديث الذى نطمح إليه إنما يبدأ من التحديث الثقافى والتعليمى؛ إذ لا يعقل طلب الحداثة والتحديث لمجتمع

به هذه النسبة المهولة من الأمية (أمية القراءة والكتابة) التى وصلت لحوالى ٤٠ فى المائة فى الوقت الذى تزداد فيه النسبة إذا أضفنا عليها سنويا نسبة ما يتسربون من التعليم الإلزامى، فضلا عن شيوع ما يسمى بأمية المتعلمين؛ فليس خافيا أن بعض أبنائنا من تلاميذ المرحلتين الابتدائية والاعدادية لا يجيدون بل لا يعرفون القراءة والكتابة. ومن هنا فنقطة البدء فى ثورة الحداثة والتحديث الثقافى هى القضاء التام على الأمية بكافة صورها وأشكالها، ولا مانع يمنع من وقف التعليم بكل مراحله عاما كاملا لنجعله عام القضاء على الأمية فينتشر فيه طلاب الجامعات وأساتذتهم ومعلمى المدارس ومديريها فى ربوع مصر وفى ظل برنامج قومى شامل حتى تصبح بلدنا بلدا خاليا من أمية الكبار وعدم اتقان الصغار والمتسربين من المدارس مهارة القراءة والكتابة. وفى ذات الوقت تسخر أجهزة الاعلام المختلفة للترويج لهذا البرنامج والمشاركة الفعلية فيه. إن أمة تريد أن تنهض وتتقدم لا يمكنها ذلك إلا باستغلال كل قوتها البشرية ولا يعد الإنسان إنسانا كامل الأهلية وقادرا على صنع التقدم والمشاركة فيه وهو لا يعرف القراءة والكتابة، إنها الفارق الجوهرى حقا بين الإنسان والحيوان، إنها الفارق بين إنسان حى فاعل وواعى وبين إنسان جاهل لا يدرك من أمره شيئا ولا يعرف من حقوقه إلا حق الحياة والحفاظ على النوع وانجاب الذرية غير الصالحة وغير الواعية بميراث الجهل والفقر!!

وإذا نجحنا فى ذلك وسننجح إذا تولدت لدينا بالفعل إرادة التقدم والنهوض، فليتم بالتوازى وضع خطط النهوض واعادة بناء الثقافة المصرية بمشاركة كل ما نملك من أجهزة ومؤسسات ثقافية واعلامية، ووضع خطط إعادة بناء نظامنا التعليمى بكل مراحله رافعين شعار «ثقافة تقدم وتعليم جيد = مجتمع على طريق النهوض».

ومادام موضوع حديثنا هنا عن اعادة بناء الثقافة المصرية وتحويلها من ثقافة تخلف إلى ثقافة تقدم يحرص فيها الفرد كما تحرص فيها الجماعة على اكتساب قيم التقدم والعمل وفقا لبناء ثقافى وأخلاقى واجتماعى جديد، فالسؤال الآن هو كيف يتم لنا ذلك؟ وبأى أليات يمكن أن تتحول لدينا قيم وسلوكيات ثقافة التخلف إلى قيم جديدة مغايرة تماما تحرض على الابداع وتحث على المداومة على العمل الخلاق والسلوك الايجابى باستمرار؟! وكيف يمكن أن نتحول من مجتمع خامل كسول إلى مجتمع مبدع لا يخشى فكر جديد بل يتفاعل معه بايجابية وبعقلية منفتحة تقبل الرأى الآخر حتى لو اختلفت معه؟!